الطبيب الشهير

ابو عبد الله التميمي المقدسي

لقدري حافظ طوقان

الطب من العلوم التي عني بها العرب فكانت موضع اهتمام علمائهم وخلفائهم فلقد عكفوا على دراسة ما أخرجه اليونان والسريان والكلدان في مختلف بحوثه ، وأصلحوا بعضه ثم زادوا عليه زيادات مهمة يقول عنها كتاب تراث الاسلام : « إن العرب زادوا على الطب اليوناني كثيراً وزياداتهم فيه مبنية على التجربة — أي أنها كانت عملية — » وهذا رد رأي القائلين بأن علوم العرب كانت نظرية مبنية على الأسلوب النبي. ولقد ظهر لهم فيه مؤلفات نفيسة كالقانون لابن سينا وكتاب الحاوي للرازي وكتاب التعريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي . ولقد استفاد الافرنج من هذا الكتاب في نهضتهم الحديثة فائدة كبرى كما استفادوا من بعض المؤلفات الطبية العربية التي بقيت تدرس في جامعاتهم حتى القرن الثامن عشر الميلاد . ومما يدل على تقدير الغربيين للطب العربي ورجاله أن جامعة (برنستون) الأميركية قدرت خدمات الحضارة الاسلامية وأفضالها على الانسانية والثقافة فراحت تخصص أفخم ناحية في أجمل ابنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما راحت تنشىء داراً لتدريس العلوم العربية والبحث في المخطوطات واخراجها ونقلها الى الانكليزية حتى يتمكن العالم من الوقوف على أثر التراث الاسلامي في تقدم الطب والعلم وازدهار العمران

نبغ في الطب كثيرون وتصفح مبسط لكتاب طبقات الأطباء وتراجم الحكماء وكشف الظنون تثبت ان الذين زاولوا صناعة الطب والصيدلة كثيرون جداً ومن أقطار مختلفة وقد كان لهم نظام مخصوص يسيرون عليه ورئيس يمتحنهم ويجيز المقتدر منهم وبلغ عدد الأطباء في زمن المقتدر بالله في بغداد « ... ثمانماية رجل ونيفاً وستين سوى من استغنى عن مهنته باشتهاره في التقدم في صناعته وسوى من كان في خدمة السلطان ... »

ومن الذين نبغوا في الطب في فلسطين في القرن الرابع للهجرة ابو عبد الله محمد بن أحمد

ابن سعيد التنيسي . كان معاصراً في القدس وله اجوبة « معرفة جيدة بالنبات ... يتعلق بالعقاقير ، ويقول عنه ابن أبي أصيبعة « ... وكان متميزاً في معرفة صناعة الطب والاطلاع على دقائقها وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه وركب منه شيئاً كثيراً ... » « كان جده طبيباً وقد صحب أحمد بن أبي يعقوب مولى بني العباس ، وارتحل محمد ابو عبد الله الى كثير من البلدان بقصد الدراسة والاستزادة من العلوم الطبية وقد امتاز على غيره من معاصريه بمهارته في تركيب الأدوية وحسن اختيار في تأليفها وعنده غوص على أمور من هذا النوع واستغراق في طلب غوامضه ... »

كان صاحبنا من حاشية الحسن بن عبد الله بن طغج حاكم الرملة والبلاد المجاورة ونال احترامه وثقته « ... وقد عمل له عدة معاجين ولحاخ طبية ودخناً دافعة للوباء ، وسطر ذلك في مصنفاته ... »

ويرى بعض الأطباء ان هذا الدخن الدافع للوباء أوحى الى الأطباء الذين اتوا بعد ابي عبد الله التنيسي فكرة استعمال التبخير لقتل الجراثيم

أدرك ابو عبد الله الدولة العلوية عند دخولها مصر وصحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز وصنف له كتاباً ضخماً يقع في عدة اجزاء سماه « مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء ... »

واستفاد كثيراً من وجوده في مصر فلقد اجتمع على اطباء كثيرين من أهل مصر والمغرب من الذين قدموا في صحبة المعز ، وجرت بينه وبينهم مناظرات في البحوث الطبية . ولا شك أن هذا قد أكسبه معرفة وأوقفه على معارف الأقطار الاسلامية الثانية — وهذا على ما أرى من العوامل التي كانت سبباً في شهرته وذيوع اسمه والاعتراف بفضله وتفوقه

كان أبو عبد الله ذا روح علمي صحيح مخلصاً للحقيقة ، ولقد دفعه هذا الى الاعتراف بأنه اقتبس بعض الأدوية عن بعض الذين اجتمع عليهم ولازمهم . جاء في كتاب طبقات الأطباء : « وكان (أي أبو عبد الله) قد اجتمع في القدس بحكيم فاضل راهب يقال له ابنا زخريا بن توابه وكان هذا الراهب يتكلم في شيء من اجزاء العلوم الحكمية والطب ، وكان مقيماً في القدس في المائة الرابعة من الهجرة ، وكان له نظر في أمر تركيب الأدوية ، ولما اجتمع فيه محمد التنيسي لازمه وأخذ عنه فوائد وجملاً كثيرة مما يعرفه . وقد ذكر في كتابه مادة البقاء صفة سقوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة وذكر انه نقل ذلك عن ابنا زخريا ... »

وكان التنيسي من الذين يرون الوهم والاحداث النفسية من العلل التي تؤثر في البدن ومن الأمور التي يجب على الطبيب ان يحسب حسابها ، وعلى هذا كان يسير في معالجة مرضاه برفع الوهم

المسيطر عليهم وتصوير شأن المرض. ويروي حادثة وقعت مع والده يقيم الدليل فيها على الأثر القوي الذي يحدثهُ الوهم في الانسان. والقصة كما جاءت على لسانه هي: «... حدثني والدي رضي الله عنهُ انهُ سكر مرة سكراً مفرطاً غلب فيه على عقله فسقط في بعض الخانات من موضع عالٍ الى أسفل الخان وهو لا يعقل فحمله صاحب الخان وخدمهُ حتى ادخله الى الحجرة التي كان يسكنها فلما أصبح قام وهو يجد وجعاً ووهناً في مواضع من جسده ولا يعرف لذلك سبباً فركب وتصرف في بعض أموره الى ان تعالى النهار ثم رجع. فقال لصاحب الخان: اني اجد في جسدي وجعاً وتوهناً شديداً لست أدري ما سببهُ؟ فقال صاحب الخان: ينبغي أن تحمد الله على سلامتك. قال ممَّ ذا؟ قال أوما علمت ما نالك البارحة؟ قال. لا. قال قانك سقطت من أعلى الخان الى أسفل وأنت سكران. قال ومن اي موضع؟ فأراه الموضع. فلما رآه حدث به الوقت من الوجع وانضربان ما لم يجد معهُ سبيلاً الى الصبر وأقبل يضجّ ويئوّه الى ان جاؤوه بطيب ففصده وشدَّ على مفاصله المتوهنة خيارة فأقام اياماً كثيرة الى ان برىء وذهب عنهُ الوجع...»

***

وضع النعمي مؤلفات قيمة كان لها أثر في تقدم العلوم الطبية، ومن هذه المؤلفات ما بيّن لنا انهُ ركب ترياقاً سماه مخلص النفوس، وبعد ان ذكر صورة تركيبه قال عنهُ في كتاب مادة البقاء: «... هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصوبة في الابدان بلسع ذوات السم من الافاعي والثعابين وأنواع الحياة المهلكة السم والعقارب وغيرها وذوات الاربع والاربعين رجلاً... محرَّب ليس له مثيل..» وجاء أيضاً في كتاب مادة البقاء وصف لدواء جديد ذكر صورة تركيبه وأسماء مفرداته وسماه «مفتاح السرور من كل الهموم» وألف أيضاً دواء آخر أطلق عليه مفرح النفس عمله بعض اخوانه بمصر وذكر صورة تركيبه واسماء مفرداته

وله من الكتب رسالة الى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدوية «ونعت اشجاره الصحيحة واوقات جمعها وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته»

وكذلك له كتاب آخر في الترياق وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه، وكتاب مختصر في الترياق وكتاب مادة البقاء الذي ورد ذكره والذي صنفه للوزير أبي الفرج يعقوب ابن كلس بمصر. وله مقالة في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه وكتاب الفحص والاختبار وكتاب «المرشد الى جواهر الأغذية وقوى المفردات والأدوية».

نابلس — قدري حافظ طوقان